الباب السادس

الخصائص الفنية لشعر أبي تمام

تحدثت فى تاريخ حياة أبى تمام عن حياة شعره، لما كنت أرى بينهما من تلازم واشتباك، لا يمكن معه فهم أحدهما إلا مقترنا بالآخر. وجهدت خلال ذلك أن أنبه إلى الخصائص الفنية لهذا الشعر، وإلى أدواره التى مرّ فيها. ولكن الكلام هناك مفرق، تصرف تفاصيله النظر إلى الجزئيات، أكثر مما تصرفه إلى الكليات. ولذلك أرى لزاما هنا أن أستجمع تلك النظرات المتفرقة، وأن أتجه فى الحديث على هذه الخصائص، إلى ما يجرى عند أصول تلك التفاصيل التى تحدثت عنها.

١ — طابع عام لفن أبي تمام

(١) تزاوج حسه وعقله جميعا ومظهر ذلك: فن أبى تمام فن يجرى فيه الفكر والشعور جنبا إلى جنب، لا يفترقان، ويمكن أن يلخص فى كلمات قصار: تلك هى أنه مظهر حسه للجمال. وهو حس نفاذ إلى سمات الجمال، فى كل ما كان يتصل بأبى تمام فى وجوده، مما تقع عليه الحواس، ومما يدركه القلب والعقل جميعا.

أبو تمام شاعر يرى الأشياء والأحداث بأرق الحواس وأعرقها فى الشاعرية، فإذا فرغ عنده عمل الحاسة بدأ عمل العقل، فيأخذ فى تحليل مشاعره، والضرب فى أنحائها، حتى إذا وجد المعانى التى يبغيها، فنظمها، ورتبها، انقلب إلى إبرازها فى ألفاظ يرصها فى تؤدة، ويمقها فى اطمئنان، فيلائم بين أجراسها وألوانها، ويقابل بين الفكرتين، ويراعى اللفظ وقسيمه. وهو يسير فيها بفكرة واضحة، يكمل البيت ما سبق إليه أخوه، فما يكاد يفرغ من القصيدة حتى يكون قد أخرج للناس موضوعا واحدا متماسكا، تجرى فيه فكرة واحدة.

نَشْرٌ يسير به شِعْرٌ يهذّبه ... فِكْرٌ يجول مجالَ الروح فِي الجسدِ

فالقصيدة بفضل الفكرة الجارية فيها ذات وحدة وتماسك، يدفعان به إلى أن يشبهها بالصخرة فى تماسكها، وتلازم معانيها، فيقول فى غير غفلة عن الإشارة إلى ناحية الجمال فى فنه:

وكأنما نظمُ القوافي لؤلؤٌ ... أثبتُّهُ فى جَندل منضودِ

فتسمعه يقول لسليمان بن وهب ، يشفع فى سليمان بن رزين ، ابن أخى دعبل الشاعر :

ذو الوُدّ منى وذو القربى بمنزلةٍ ... وإخوتى أسْوةٌ عندى وإخوانى
لا تُخْلِقَنْ خُلُقِى فيهم وقد سطعَتْ ... نارى وجدَّدَ من حالى الجدِ يدانِ
فى دهرىَ الأولِ المذمومِ أعرِفُهم ... فالآن أُنكِرهم فى دهرِىَ الثانِى
لاقى إذنْ غَرْسُهم أكدى ثَرىً وجرتْ ... منى ظنونهُمُ فى شر ميدانِ
عصابةٌ جاورت آدابهُم أدبى ... فهم وإنْ فُرِّقوا فى الأرضِ جيرانِى
أرْوَاحُنَا فى مكانٍ واحدٍ وغدَتْ ... أبدانُنَا بشآمٍ أو خُراسانِ
ورُبَّ نائى المغانى روحُهُ أبدا ... لصيقُ روحى ودانٍ ليس بالدانِى
أفى أخٍ لىَ فَرْدٍ لا قَسِيمَ له ... فى خالِصِ الوُدِّ من سِرى وإعلانِى
تُرَدّ عن بحرِك المورودِ راجعةً ... بغيرِ حاجتها دَلوِى وأشطانِى
مسلَّطٌ حيث لا سلطان لى ، ويدى ... مغلولةُ النفعِ والسلطان سلطانِى
/ كالنارِ ، باردةٌ فى عُودِها ، ولها ... إنْ فارقته اشتعالٌ ليس بالوانِى
ما أنَسَ لا أنس قولا قاله رجلٌ ... غضضتُ فى عُقْبِهِ طَرفى وأجفانِى :
نِلِ الثريَّا أو الشعرى فليس فتى ... لم يُغْنِ خمسين إنسانا بإنسانِ

فتسمع حديثا جاريا ، يكمل بعضه بعضا ، ويتسلسل تسلسلا منطقيا لا اضطراب فيه ، ولا نبوّ لبعضه عن بعض .

وتسمعه يذكر الحب ، فيقسم أيامه تقسيم الفيلسوف ، ويسرد وجوهه سرد المتأمل ، فى أسلوب شعرى أخاذ ، فيقول عمن يحب :

ولقد أراك ، فهل أراك بغبطةٍ ... والعيشُ غَضٌّ والزمانُ غلامُ
أعوامُ وصلٍ كان يُنسِى طولَها ... ذكرُ النوَى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجرٍ أردفَتْ ... نجوَى أسًى فكأنها أعوام
ثم انقضتْ تلك السنونَ وأهلُها ... فكأنها وكأنهم أحلام
أتحدرتْ عبراتُ عينك أنْ دعَتْ ... ورقاءُ حين تَضَعْضَعَ الإظلام
لا تشجَيَنَّ لها فإنَّ بكاءها ... ضحِكٌ وإن بكاءك استغرام
هنَّ الحَمام فإن كسرت عِيافةً ... من حائهن فإنهن حِمام

فتحدّث عن أمله فى رؤيته فى المستقبل، حديثا أظهر فيه خبيئة نفسه، حتى إذا فرغ منه، تحدث عن الماضى، فقسّمه؛ وأسهب فى تصويره، تصويرا يمس القلوب بشعره، وآكتمال التعليل؛ فإذا آنتهى من تقسيمه المعلل، عاد الى حاضره، يلوم نفسه على البكاء، لأنّ حمامة بكت فذكرته بماضيه، ثم لا يترك هذا البكاء للحمائم حتى يعلق عليه، تعليق المتأمل فى كل مظاهر وجوده ووجود ما حوله :

لا تشجينَّ لها فإنَّ بكاءها ... نحكٌ وإنّ بكاءك آستغرام

هنَّ الحَمامُ فإن كسرت عِيافةً ... مِن حائِهِنَّ فإنهن حِمام

وهو فى هذا التقسيم، والتبويب، والتعليل، والتصوير، شاعر حق، يهز شعره النفس. لأنه يختار أرق ما فى مظاهر ما يتحدث عنه فيصوره، وهو لا ينسى مع الفكرة وسلامة الذوق فى آنتقاء الصورة، تلك الحُلَى اللفظية، والآستعارات الرائقة، والبديع. فأعوام الوصل تعكرها ذكرى النوى أيام قصار وأيام الهجر لما تحوى من أسى أعوام طوال وإن أثر هذا البديع المعجز ليبدو فى بيته :

هُنَّ الحَمامُ فإنْ كسرتَ عِيافةً ... مِن حائِهِنَّ فإنَّهُنَّ حِمامُ

وأبعد مافيه مِنالا هو التنبيه عليه فى البيت، دون آبتذال أوثقل أوخروج عن معنى الشعر. هذا هو الطابع العام لشعر أبى تمام : حس دقيق رقيق، ومعنى عميق متغلغل إلى ما وراء الظواهر. فأبو تمام ليس ممن يمد إليه الإنسان يده، فيجده بسهولة، ويعثر عليه وهو مغمض العينين، متى أدرك معانى مفرداته، ولكنه الشاعر الذى يرغم قارئه على أن يفتح عينيه، ويوقظ كل عقله، ليقع منه على ما يبغى، أو على بعض مايبغى؛ فإذا هو وجده، وجد أكثر مما كان يرجو، وآهتزت مشاعره لفكرته، كما تهتز لشعوره.

وإن شاعرية أبى تمام ليست من تلك الشاعرية الخفيفة، التى تَمِضُ لك من إثارة حس منقطع عما يليه، يأخذك بجماله الواضح فى العين، أو النابت فى القلب وحسب، ولكنها أيضا فى ذلك الإلحاح على إبداء خفايا النفس، ونشر ما يمكن أن يمر بها فى تجاربها. هى وليدة القلب والعقل معا، وهى بنت الرياضة والتحكم اللذين يظهران الإنسان صناعة الشعر، وهى قريبة إلى القلب، حتى إنها لتلتبس بالطبع. ليست بالتى تتفجر تفجرا، ويسيل بها اللسان سيلا، ولكنها لا تعدم أن تنال من القلب ما يناله وليد الطبع، ومن العقل ما يرضى به هوى الفكر. وإن لمح أبى تمام لما عسى أن تصوغ به النفس مظاهر الحياة البريئة، فى ذلك البيت الفذ عن الحمامة :

لا تَشْجَيَنَّ لها فإنّ بكاءها ضحكٌ و إنّ بكاءك استغرام

لما يستطيع الإنسان أن يذكره له فى غير قليل من الحب والإعجاب .

كما أن ذلك التلاحق فى الأبيات، والتماسك بين المعانى، مظهر من مظاهر تطور الشعر عند أبى تمام ، حتى إن الإنسان ليجد فيها شيئا يشبه القصة ، ولكنها قصة نفس .

(ب) التسلسل الفكرى ووحدة القصيدة : هذا التسلسل الفكرى فى القصيدة ، لم يقف أثره عند هذا الحد المعنوى ، فى ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض ، بل تعداه إلى أثر لفظى خرج بوحدة الشعر العربى التقليدية ، وهى البيت ، إلى وحدة أوسع ، هى القصيدة ؛ فترى أبا تمام يأتى بالمبتدأ مثلا فى بيت، وبالخبر بعده بأبيات كثيرة ، لأن التلاحق المنطق للمعانى فى القصيدة يقتضى ذلك . فيقول :

وأنت وقد جَمَّت خراسانُ داءها وقد نَغلتْ أطرافُها نَغَل الجلْدِ
وأوباشُها خُزْرٌ إلى العَربِ الأولى لكيما يكونَ الحرُّ مِنْ خَوَل العبد

ثم يمضى فى تفصيل هذه الحال فى خمسة أبيات أخرى ، حتى إذا فرغ جاء خبر المبتدأ :

ضممتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها ولم يحدوا إذ ذاك مِنْ ذاك مِنْ بُدِّ

(ج) كثرة المعانى المخترعة عند أبى تمام :

كما أن هذا التفكير الدائم، والنظر فى الأشياء والأحداث والعواطف ، جعل شعر أبى تمام مسرحا لمعانٍ لم توجد فى شعر غيره .

ولقد تتبع القدماء — ولهم ما كان لهم من إحاطة بالشعر، ووقوف عنده بما لا يتهيأ لنا الآن — معانى الشعراء : ما اخترعوا منها، وما نقلوا عن غيرهم، فكان أوفرهم حظا منها أبو تمام . فيقول ابن الأثير[1] : " وقد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى . وقد عدت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك " . ثم يقول " فأما ماورد لأبى تمام .

(١) فمن ذلك قوله :

يأيها الملكُ النائى برؤيته وجُوده لمُراعى جُوده كَثَبُ
ليس الحجابُ بمقصٍ عنكَ لى أملا إن السماء تُرَجَّى حين تحتجب

(١) المثل السائر ص ١٩٢ .

(٢) وكذلك قوله :

ولكنْ دارةُ القمرِ آستتمتْ فدلتنا عـلى مطرٍ قـريبِ

(٣) وكذلك قوله فى الهجاء :

وأنت تُدِير قُطْبَ رَحًى علياً ولم يُـرَ لِلرَّحَا العلياءِ قُطْبَا

تَرَى ظَفَـرا بِكل صِراعِ قِـرنٍ إذا ما كنتَ أسفلَ منـه جَنْبا

(٤) وكذلك قوله :

وإذا أراد الله نشرَ فضيـلةٍ طُوِيتْ أتاح لهـا لِسانَ حَسُودِ

لولا آشتعالُ النـارِ فيما جاورتْ ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العودِ

(٥) وكذلك قوله :

لا تُنـكِروا ضربِى له مِنْ دونَهُ مَثَلا شرودا فى النـدى والباسِ

فاللهُ قـد ضرب الأقلَّ لِنـورِهِ مثلا مِن المِشكاة والنبراسِ

(٦) وكذلك قوله :

لا تنكِرِى عَطَل الكريمِ مِن الغِنى فالسيلُ حَرْبٌ لِلمكانِ العـالى

(٧) وكذلك قوله فى الشيب :

شُـعْلةَ فى المفارِقِ آستودعتنِى فى صميمِ الفـؤادِ ثُكْلاً صميما

تستثير الهمومُ ما آكتَنَّ مِنهـا صُعُـدًا وهى تستثيرُ الهموما

فالبيت الثانى من المعانى المخترعة، وقد تفقه فيـه ، بجعله مسألة من مسائل الدور ؛ وهذا من إغراب أبى تمـام المعروف . وهذا القدر كاف من جملة معانى فانا لم نستقصها هنا " .

وفى مكان آخر[1] يذكر له من المعانى المبتدعة قوله فى وصف مصلّبين :

بَكَرُوا وأسرَوْا فى بُطونِ ضـوامِرٍ قِـدتْ لهـم مِن مَرْبَـطِ النجّارِ

لا يبرحون ومَنْ رآهم خالَهُـمْ أبدا على سَـفَرٍ مِن الأسفارِ

ثم يقول : وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة . والخاطر فى مثل هـذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع عن غير كبير كلفة ، لشاهد الحال الحاضرة . وكذلك قال فى هذه القصيدة فى صفة من أحرق بالنار :

(١) نفس المصدر ص ١٨٧ .

ما زالَ سِرُّ الكُفْرِ بين ضُلوعِه حتى اصطلى سِرَّ الزنادِ الوارِى
نارًا يُساوِر جسمَه مِن حَرِّها لهبٌ كما عَصْفرتَ شقَّ إزارِ
طارتْ لها شُعَلٌ يهدِّم لفحُها أركانَه هدما بغيرِ غُبارِ
فصَّلْنَ منه كلَّ مجمعٍ مَفْصِلٍ وفعلْنَ فاقرةً بكل فقَار
مشبوبةٍ رُفِعتْ لأعظمِ مُشرِكٍ ما كان يرفعُ ضوءها للسارِى
صلِّىَ لها حيا وكان وقودَها ميتا ويدخلها مع الفُجَّارِ

هذا ما عدده له ابن الأثير، على أنه بعض المعانى التى ابتدعها، ولم يسبقه أحد إليها؛ وقد كانوا يعملون فى حدود لا نعمل فيها نحن الآن، فكانوا يجتهدون فى حصر المعانى، وما قيل من الشعر فى كل معنى، وبذلك يعرفون ما وقع عليه الشاعر من جديد معنى. وليس لنا اليوم هذه القدرة على إحصاء المعانى المبتدعة، إذ لم تتوفر لنا آلتها من حفظ ورواية.

(د) مظهر من مظاهر التجديد: كما أن هذه السنة، فى تقدير المعانى بجدتها، قد انتسخت عندنا؛ فنحن الآن أكثر تقديرا لما يجلو لنا شيئا من خفايا نفوسنا، ويصور لنا بعض ما نحسه، وأبو تمام فى هذا جديد، نجد فى شعره صدى لما فى نفوسنا فى عصرنا هذا، البعيد عن عصره، والغريق فى المادية، فنحن نصيخ إليه حين يقول:

رقيقُ حواشى الحِلم لو أنّ حِلمه بِكفَّيْكَ ما ماريْتَ فى أنه بُرْدُ

مع أن أهل عصره لم يقبلوا منه هذا الوصف للحلم. فيقول الآمدى عنه: "والخطأ فى هذا ظاهر، لأنى ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، إنما يوصف الحلم بالعظم، والرجحان، والثقل، والرزانة، ونحو ذلك". كما أنه يعترض على البيت اعتراضا آخر فيقول: "وأيضا، فإن البُرْد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالمتانة، والصفاقة، وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة".

ذلك أن من قبل أبى تمام أدركوا الناحية المادية فى الحلم، ومظهر الحليم الهادئ الرزين الثابت. أما أبو تمام ففيه هذا الحس الشعرى، الذى يدرك الجمال النفسى فى الحلم. ذلك اللون السامى من ألوان النفس، الذى يقع فى القلب ولا يقع تحت العين، فوصفه بعد أن أدركه؛ وصفا خالف فيه طريقتهم.

أما استعمال كلمة "البرد" فى غير معناها الأصلى، فيمكن أن يتجوز فيه بانتحال لين الحضارة مخففا لنقل اللفظ إلى غير مدلوله الأول، جريا مع الحياة بعد انتقالها من طور البداوة إلى طور الحضارة. ولقد أشرت إلى نقل اللفظ عن دلالته، فى الكلام على "القدماء والمحدثين".

فيكون لأبى تمام فى هذا البيت الواحد ثورتان لم يرضهما عصره : الأولى على تصوير المعنى ، والثانية على استخدام اللفظ . وهذا الاستعمال للفظ "البُرْد" قد تبعه فيه تلميذه البحترى ، غير عابىء بنقد الناقدين ، لأنه كان قريب حس بالحياة منه . فقال :

وليالٍ كُسِين من رِقَّةِ الصـ ـيفِ نَحَيْلْن أنهنَّ بُرُودُ

* * *

(هـ) إحساسه بجمال الطبيعة ، وميله إلى وصفها : ومن منا لا يطرب لوصفه الربيع ، ولا يهتز عطفاه؟ حين يسمع قوله :

غنِّى فشاقكَ طائرٌ غرِّيدُ ... لمَّا ترنم والغصونُ تميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً ... فدعتْ تُقاسِمه الهوى وتَصيد
إلْفان فى ظل الغصونِ تآلفا ... والتفَّ بينهما هوًى معقود
يتطعمانِ بريقِ هذا هذه ... مجما ، وذاك بريقِ تلك معيد
يا طائرانِ تمتعا هُنِّيتما ... وعَما الصباحَ فإننى مجهود
أبكى وقد تلتِ البروقَ مضيئةً ... من كل أقطارِ السماءِ رعود
واهتزَّ رَيْعانُ الشبابِ فأشرقت ... لِتهلُّل الشجرِ القُرَى والبيد
ومضت طواويسُ العراقِ فأشرقت ... أذنابُ مُشرِقةٍ وهن حفود
يرفُلْنَ أمثالَ العذارى طُوِّفًا ... حول الدُّوارِ وقد تدانى العيد

فذلك هو الشعر الذى يصور حسًّا لمثل هذا الجمال ، تصويرا لا تستطيع اليوم أقلام شعرائنا الواهنة أن تمس ناحية منه ، مع مامضى على قوله من أحد عشر قرنا ، كان يمكن أن تقيم بيننا و بينه حجابا أبديا ، من الجمود والاستحالة .

وكما يشجى الإنسان اشتراكه مع أبى تمام فى حسه ، يشجيه فنه المجرد البعيد شيئا عن الحس الخاص ، فإذا وصف أبو تمام الشيب بقوله :

شُعلة فى المفارقِ استودعتْنِي ... فى صميمِ الفؤادِ ثُكْلا صميما
تستثير الهمومُ ما اكتنَّ منها ... صُعُدا وهى تستثير الهموما
غُرَّةٌ بهمةٌ ألا إنما كنـ ... ـتُ أغترا أيامَ كنتُ بهيما
دِقَّةٌ فى الحياةِ تُدْعَى جلالا ... مثلَ ما سُمِّى اللديغ سليما

لم يستطع الإنسان إلا أن يعجب بهذا الفن ، وأن يستشعر هزة رقيقة " لشاعرية الفكرة " إن صح هذا التعبير .

(و) ميل أبي تمام إلى تناول الناحية النفسية : كما أن فى فن أبي تمام دائما ميلا إلى الناحية النفسية، وتقديرا لتلك الحياة القوية ، التى تجرى وراء الصور والأجسام المائلة من الخلائق . وهو لا يعبأ فى كثير من الأحايين بالجسم وضخامته ، قدر ما يعبأ بالروح، وبمنابع القوى الغلابة المستترة فى الإنسان، والمسيطرة على قدره . ويحس الإنسان فى نظراته هذه عمقا، ليس يشبه تلك النظرات المتخطفة من فوق السطوح . فيقول :

إذا دُجاها أحاطتْ بى أحطتُ بها ... قلبا متى أسْرِ فى ظَلْمائه يقِدِ

ويقول :

وارى الفؤادِ فلَوْ كانتْ بعزمتِه ... تذكَى المصابيحُ لم تَحْبُ المصابيحُ

كأنه فى اجتماعِ الروحِ فيهِ، له ... مِن كلِّ جارحةٍ فِى جِسمِهِ روح

ويقول :

تجِد صِلًا تَخال بكل عضوٍ ... له مِن شدةِ الحركاتِ قلبا

ويقول فى وصف ملك الروم فى هربه :

مضى مدبِرا شَطْرَ الدَّبورِ ونفسُه ... على نفسهِ مِن سوءِ ظن بها أَلَبُ

ويقول ، وما أروع هذا الأدب النفسى :

إنى لأستحيِي يقينِىَ أنْ أَرَى ... لِشكِّىَ فى شيءٍ علَيْهِ دليلُ

* * *

وفنه على العموم هادئ، ليس بالصاخب ولا العنيف، لا يشبه دق الطبول، ولا دوى الرعود. ولكنما هو أشبه بالابتسامة العميقة الحلوة ، أو النغمة العذبة الفاتنة ؛ وهدوء فنه هذا تجده فى كل حالاته : فى غضبه ، وفى رضاه ، وفى فرحه، وفى حزنه ، وفى يأسه، وفى أمله ، فيه حلاوة النفس، تدرك واضحة فى مثل قوله :

وإذ عِلْمُ مجلِسِه مَوْرِدٌ ... زُلالٌ لِتلك العُقولِ الظِّماءِ

تحول السكينةُ دونَ الأذى ... به، والمروءةُ دونَ المِراءِ

وفى مثل قوله :

مَنْ لى بإنسانٍ إذا أغضبتُهُ ... وجَهِلتُ كان الحلمُ ردَّ جوابِهِ
وإذا طربتُ إلى المدامِ شربتُ من ... أخلاقِهِ وسكرتُ من آدابِهِ
وتراه يُصغِى للحديثِ بسمعِهِ ... وبقلبِهِ ولعلَّه أدرى به

وفى مثل قوله :

ممتلِىء الصدرِ والجوانِحِ من ... رحمةِ مملوئهنَّ من حَسَدِه
يأخذُ من راحةٍ لِشُغْلٍ ويسْـ ... ـتَبْقِى لِبَأْسِ الزمانِ من ثأدِه
فهو لو استطاع عند أسعدِهِ ... لحزَّ عضوا من يومِهِ لِغَدِه
إذ منهمُ مَنْ يُعَدُّ ساعتَه الـ ... ـطَّلْقَ عِيارا له على أبدِه
ألوى كثيرِ الأسى على سودَدِ الـ ... ـعَيْشِ قليلِ الأسى على رَغَدِه
قريحةُ العقلِ من مَعاقِلِهِ ... والصبرُ فى النائباتِ من عددِه

و بمثل هذه الأبيات كان أبو تمام يسمى حكيما . وهذه ونظائرها عند أبى تمام أثر من آثار التجربة ، وبلاء الأيام ، والثقافة الواسعة .

(ز) اعتماد فن أبى تمام على الواقع والحقيقة : وفن أبى تمام فى مادته يعتمد على الحقيقة ، يتناولها فيكسوها بفنه كسوة تجعلها فى حال أشبه بالمتخيلة المبتكرة ، ولا داعى للاطالة هنا فى ذلك ، فقد تحدثت عن هذه الناحية أحاديث كثيرة ، فى تاريخ حياة شعر أبى تمام وحياته . ولكنى أشير إلى مثلين صغيرين ، يريان كيف كان أبو تمام يعتمد على الحقيقة فى أدق معانى قصائده وأصغرها[1] . يقول فى وصف فتح عمورية للمعتصم :

رَمَى بِكِ اللهُ بُرْجَيْها فهدَّمها ... ولو رَمَى بكِ غيرُ اللهِ لم تُصِبِ
مِن بَعْدِ ما أشَّبوها واثقين بِها ... واللهُ فتاحُ بابِ المَعْقِلِ الأشِبِ

(١) من ذلك أيضا ماذكره المسعودى فى مروج الذهب : ج ٧ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ طبعة باريس . يقول عن المازيار الثائر بطبرستان بعد أن أخذ : " وصلب إلى جنب بابك ... ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك ، فتدانت أجسامهما . وقد كان صلب فى ذلك الموضع باطس ، بطريق عمورية ، وقد انحنى نحوهما ميل خشبته . ففى ذلك يقول أبو تمام من كلمة له :

ولقد شفا الأحشاء من برحائها ... أن صار بابك جار مازيار
ثانيه فى كبد السماء ولم يكن ... لاثنين ثان ، إذ هما فى الغار
فكأنما انحنيا لكيما يطو با ... عن باطس خبرا من الأخبار"

وقال ذو أمرهم : لا مَرْتَعٌ صدد ... للسَّارحين، وليس الوِرْدُ من كَثَبِ
أمانيًّا سلبتْهُم نُجْح هاجسها ... ظُبَى السيوفِ وأطرافُ القنا السلُبِ
إن الحمامَيْن من بِيض ومن سُمُرٍ ... دَلْوَا الحياتيْنِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

ومن استقراء وقائع التاريخ نجد أن هذا هو ما كان حقا . فقد كان حاكم المدينة يقول لجنده : " لا تخافوا فإن مدينتنا ممتنعة عالية ، لا ينالها العدو ، وليس بالقرب منا ما ترعاه خيولهم ، ولا ماء يشربون منه " . وفى ابن الأثير : أن المسلمين قد لقوا ضيقا بقلة الماء والمرعى . ولذلك يرد عليه أبو تمام بقوله :

إن الحمامَيْنِ من بِيض ومن سُمُرٍ ... دَلْوا الحياتينِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

ولقد ذكرت قبلا ، فى حياة أبى تمام ، كيف أخذ بابك بنو سُنْباط ، من بطارقة إرمينية . فإذا تحدث أبو تمام عن أخذه لم ينس ذكرهم فيقول :

تقنَّصَهُ بنو سُنْباطَ أخذا ... بأَشْراكِ المواثقِ والعُهُودِ
ولو لا أنَّ رِيحك ذَرَّ بهم ... لأعجمتِ الكلابُ عنِ الأسودِ

وهو لا ينسى شيئا فى سبيل الانتفاع بالحقيقة ، حتى ذكر الأيام التى حدثت فيها الأحداث ، فتكثر فى شعره كثرة ملحوظة . فيقول فى رثاء عُمَير بن الوليد ، وقد مات يوم الثلاثاء كما فى الكندى .

فيا يومَ الثلاثاءِ أصطبحنا ... غداةً منك هائلة الورودِ
ويا يوم الثلاثاءِ أعتمدْنا ... بفقدٍ فيك للسَّنَدِ العميدِ

ويقول فى خالد بن يزيد :

نِعم لِواءُ الخميسِ أبْتَ به ... يومَ خميسٍ عالِى الضُّحَى أفِده

ويقول فيه أيضا :

جَذَبْتُ نداهُ غُدوةَ السبتِ جَذْبةً ... فخرَّ صريعا بين أيدى القصائدِ

ويقول :

فالبدُّ أغ[redacted]الردى أكلٌّ من الآكالِ
ألوتْ بهم يومُ الخميسِ كتائبٌ ... أرسلتَهُ مثلا من الأمثالِ

هذه هى السمات العامة ، التى تطبع شعر أبى تمام ، ولا تخلو قصيدة من قصائده من آثارها .

(ح) نهج القصيدة : أبو تمام محافظ فى أغلب قصائده إذا نحن نظرنا إلى نهجها . فهو يبدأ أكثر مدائحه بمخاطبة الأطلال ، والتحسر لمرآها ، ثم ينتقل من ذلك إلى غزل يختلف طولا وقصرا ، يصف فيه حبيبته وصفا جسمانيا أو معنويا ، ثم يخرج من هذا إلى وصف الرحلة ، إن كان قد رحل إلى ممدوحه ، فإن لم يكن رحل إليه ، لم يعرّج عليها . ثم يخرج من هذا إلى ممدوحه ، فيأخذ فى مدحه ، ثم يأخذ فى طلب عطائه ، طلبا سافرا أو متواريا ، وكثيرا ما يختم قصيدته بوصف شعره والفخر به . هذا هو النمط الغالب على قصائده ، وهو لا يختلف فيه إلا قليلا عن نمط القصيدة العربية التقليدى . وقد يحيد عن هذا شيئا ، فيبدأ بوصف الخمر أو الطبيعة ، وقد يجمع بين هذين النمطين فى قصيدة واحدة ، وفى أبيات متقاربة .

(ط) أبو تمام شاعر البطولة الإسلامية : ولكنه ، أحيانا ، فى المواقف التى تأخذ بالنفس ، وتبلغ فيها العاطفة أقصى جيشانها ، فلا يكون العقل حرا فى ترسم الطريق المتواضع عليها ، يندفع فى الابتداء بما يجيش بنفسه ، فيهجم على غرضه هجوما لا هوادة فيه ، لا يمهد له ، قويا منصبا كالسيل الجارف ، يحمل الحطب والصخر جميعا ، فالإنسان منه بين شاق عسير ، وحلو غزير ، وهو بين ما يرضيه منه ، و يسخطه عليه . فنراه فى قصيدته فى فتح عمورية ، وقد مضى ما أحاط بهذه الموقعة من أحداث تأخذ بمجامع النفس ، يبدأ قصيدته هاجما على غرضه هجوما :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

ثم يمضى فى ذلك حتى ينتهى ، فلا غزل ولا أطلال . وهو كذلك فى قصيدته التى قالها فى وصف إحراق الأفشين :

الحقُّ أبلجُ والسيوف عَوارِ ... فحذارِ من أسدِ العرينِ حَذارِ

ولكنه فى أغلب قصائده ، كما قلت ، محافظ على نهج القصيدة التقليدى ، إلا أن هذا القالب القديم يحوى مادة جديدة ، تبين عن خفايا نفس عميقة ، وعقل قوى مبين . والغزل الذى يبتدئ به أبو تمام ، ووصف الديار ، فن يحبه ويقدره ، حتى ليضرب به المثل فى شعره ، فيقول :

طاب فيه المديح والتذ حتى ... فاق وصف الديار والتشبيبا

ولقد ذكرت من قبل مثلا من غزله ، وبينت كيف يتماسك ، وكيف يسود فيه نظر وتأمل فى العاطفة . وقد يلجأ فى هذا الغزل إلى الأساطير ، والأقاصيص القديمة ، يستعين بها على توضيح الصورة التى يقصد إليها ، على نحو استفادة الآداب الغربية الحديثة من الأساطير اليونانية القديمة ، فيقول :

بِيضٌ يدِرنَ عيونَهنّ إلى الصِّبا فكأنهن بها يُدِرنَ كؤوسا
وكأنما أهدَى شقائقَهُ إلى وَجَناتِهِنّ ضُحًى أبو قابوسا
لولا حداثتُها وأنى لا أرى عرشا لها لحسِبتها بِلقِيسا

وهذا الاقتران بين الضحى وورد الخدود ، وما هناك من علاقة بين ضوئه وسطوع حمرة الشقائق ، وما فى تلك المقابلة بين بياضه وصفاء نوره ، مع حمرة الشقائق ، وبين حمرة الخد يحيط بها بياض بَشَرة بيضاء صافية ، مثل من الأمثلة ، يرى أى جهد كان أبو تمام يبذله فى تكوين الصورة ، وإلى أى مدى كان يوفق ؛ كما أن فى إهداء النعمان شقائقه إلى أولئك الفتيات ، معنى جديدا يدخله أبو تمام على الاجتماع الاسلامى ، ولعله اقتبسه من أدب غير الأدب العربى ، وبخاصة إذا نحن لاحظنا أن النعمان هو حامى هذه الزهرات ، وهو ما يمكن أن يشبه بمعنى تلك الآلهة اليونانية ، التى يمثل وراء كل منها معنى يقرب من هذه المعانى . وفيها أيضا ما يرى مقدار استفادة أبى تمام فى غزله من التاريخ ، والقرآن ، وحالة الجماعة فى عصره .

من هذه السبيل الجديدة وأشباهها ، وبهذا الخيال الخصب كان أبو تمام يملأ هذه القوالب القديمة .

(ى) القَصص : فإذا هو فرغ من هذه المهدات ، انتقل إلى القول فى ممدوحه ؛ وفى هذا المدح لون آخر جديد من ألوان الفن . وهو القَصص . ولا أقصد بهذا أن أبا تمام هو واضع فن القصص الشعرى ، ولكنما أقصد أنه انتفع به فى المدح ، انتفاعا واسع النطاق ، بعيد المدى ، حتى إن صورة ممدوحه لتستحيل فى يده إلى صورة بطل من أبطال تلك الملاحم القديمة ، التى حُرِمها الأدب العربى . وبذلك يخرج المدح من حيّزه الخاص الذى تضيق به النفس إلى حيّز أوسع وأهم . كذلك هو فى مراثيه وفى هجائه ؛ وهو فى سبيل ذلك يعمد إلى التاريخ ، فيأخذ منه حاجته ؛ متمثلا بالماضى ، أو مقتبسا مادة لشعره من الحاضر الملابس لحياة ممدوحه ؛ فإذا هو أراد مدح المعتصم بعد أخذ بابك قال ، قصيدته :

آلتْ أمورُ الشركِ شرّ مآلِ وأقرّ بعد تخبّطٍ وصيالِ

فتسمع فيها قصة بابك ، من مبدئها إلى منتهاها ، فى غير جور على التاريخ . والقارئ لا يزال يتبعه فيها ، حتى ينتهى منها فى غير كلال ولا سأم ، مع طولها ، لحلاوة القصة .

وكذلك إذا مدح أبا سعيد محمد بن يوسف ، لم يقف عند وسيلة غيره فى مدح ممدوحهم . وإنما هو يصف الجيوش وحربها مع الروم ، ومع بابك .

وإذا رثى محمد بن حُميد الطائى ، وجدته يرثى بطلا من أولئك الأبطال ، الذين تقبل النفس على قراءة تاريخهم ، لتسمو ببطولتهم إلى لون من ألوان الحس الرفيع ، يخلد به الشعر ، ولا تحس فيه مذلة المدح وخصوصيته . وينصح لتغلب أن تطبع مالك بن طوق ، فيقول من قصيدته :

سَلَّمْ على الرَّبْعِ من سَلْمَى بذى سَلَمِ ... عليه وسمٌ من الأيام والقِدَمِ

* * *

لا تجعلوا البغىَ ظهرا ، إنه جمل ... من القطيعة يرعَى وادِىَ النقم
نظرتُ فى السِّيَرِ اللائى خلتْ فاذا ... أيامه أكلت باكورةَ الأمم
أفنى جَديسًا وطَسْما كلَّها وسَطا ... بالأنجم الزُّهرِ من عادٍ ومن إرمِ
أردَى كُليبا وهمَّاما وهاج به ... يومَ الذنائبِ والتحلاقِ للَّممِ

ثم يسير على هذا النمط . وهذا النوع من القصص ، قد غلب على شعر أبى تمام فى آخر أطوار شعره ، من سنة ٢٢٠ حتى مات . وهو لا ينعدم فى شعره قبل ذلك ، ولكنه أقل وضوحا ، وقد أفاد قصائده خصبا وطولا ، وجعل قراءتها لذيذة ممتعة .

كما أن اتجاه أبى تمام هذا المنحى ، قد أفاد القصة الشعرية فى الأدب العربى فائدة عظيمة . فوهب لها أوزانا مكتملة ناضجة ، وأسلوبا رصينا ، لا يشبهان فى شىء أوزان الأقاصيص العربية ، التى نظمت بعد أبى تمام ، ولا أسلوبها ، كالصادح والباغم . كما أهدى إليها وحدة القافية ، ولمحات عميقة إلى صور النفس وأحاسيسها ، التى تختلف باختلاف ما يطرأ على الشاعر من انفعالات .

ففن القصص الشعرى العربى قد ظفر على يدى أبى تمام ظفرة لم تقصد لذاتها ، ولكنها مع ذلك شىء واقع لا نستطيع إنكاره .

٢ — الصـــورة

(١) المقصود بالصورة : هذا ما أمكننى أن أستخلصه من نظرة أبى تمام خاصة إلى قصيدته فى جملتها . أما فيما يختص بجزئيات هذا الكل فأول ما يسترعى الخاطر فيها هو الصورة . إن أبا تمام يطلبها ، ويغرق فى طلبها إغراقا ، لا اعتدال فيه ولا قصد . وأقصد بالصورة كل محاولة

من محاولاته إبرازَ معنى، أو كائن، أو حدث، سواء كان ذلك عن طريق الاستعارة، أو التشبيه، أو الحديث المطال، أو غير ذلك من وسائل الإبانة عن أمر من الأمور، على وجه من وجوه القول.

(ب) الصورة فى أطوار شعره الأولى جاهلية: والصورة عند أبى تمام فى أوائل شعره، تميل إلى الأسلوب الجاهلى، فإذا وصف حبيبته فى أول قصائده قال:

وخُوطيّةٍ شمسيةٍ رَشَئيّةٍ مهفهفةِ الأعلى رَداحِ المحقَّبِ
تُصدِّعُ شملَ القلبِ من كل وِجهةٍ وتشعَبُهُ بالبثِّ من كل مَشْعَبِ
بمختبِلٍ ساجٍ من الطرفِ أحورٍ ومُقْتَبِلٍ صافٍ من الثغرِ أشنبِ
لو آنَ أمرأ القيسِ بنَ حُجْرٍ بدتْ له لما قال: مُرّا بى على أم جُندبِ

(ج) الصورة فيما يلى ذلك: وفى قصيدته التى قالها فى آل بيت الرسول:

أظبيةَ حيثُ آستنتِ الكُثُبَ العفرُ رويدكِ لا يغتالُكِ اللومُ والزجرُ

وقد قالها، كما يخبرنا فيها، قبل أن يبلغ السابعة عشرة، نراه يعمد إلى التشبيه الطويل، وفن أقرب إلى الجاهلى، مع شىء من التهذيب آستدعاه عصره، فيقول:

كأمِّ الحوارِ آستودعتْهُ نَميلةً ترأّدَ فيها النبتُ وآزدوج الزهرُ
فغيَّبَهُ عنها قَرِىٌّ بوهْدةٍ أحلَّ به أعْباءَ أحمالِهِ القَطْرُ
فخنت جنونا وآستعاضَتْ من الرُّبَى فنونا وما تُغْنِى المذلةُ والذِّكرُ
كُلًى وكَلا ثم آستحالتْهُ فاصلا من الروضِ تزهاه حُقوفُ نقاً عُفْرُ
رغا إذ رآها فاستجابتْ مُشيحةً عليهِ ومنها الرِّكلُ والزَّبنُ والطَّحْرُ
نفرْ صريعا وآستمرت بقسوةٍ تزودُ وتقرو الأمكناتِ التى تقرو

وهو أطول تشبيه فى شعر أبى تمام كله. وهو ملىء بالشاعرية، وإن تكن عناصره مستخلصة من حياة بادية. كما أن فيها صورة أخرى تهز المشاعر يقول:

فكم ليلةٍ قضّيتُها متململا إلى أنْ زقتْ أطيارَ سحْرتِهِ الزُّقْرُ
كأن نجومَ الليلِ فى أخْرياتِهِ عيونٌ له نادَى بتغميضها الفجر
كأن سوادَ الليلِ ثم آخضراره طيالِسةٌ سودٌ لها كُفَفٌ خضر

وهى صورة مليئة بالحياة، تجد فيها المشبه والمشبه به فى حركة، وليسا فى سكون، مما ينشأ عنه تركُّب وجه الشبه؛ فهو لا يشبه النجوم بالعيون فحسب، ولكن يشبه النجوم إذ تخبو فى أواخر الليل بما سطع عليها من ضوء الفجر، بالعيون تغمضها يد.

وهذه الصورة تأخذ فى التهذب والاكتمال على الأيام. فنسمعه يقول من قصيدته فى الأفشين فى وصف الجيش:

وقد ظُلمت عِقبانُ أعلامهِ ضُحًى ... بعِقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهلِ
أقامت مع الراياتِ حتى كأنها ... مِن الجيش إلا أنها لم تقاتلِ

حتى إذا كانت أواخر أيامه سمعناه يقول لخالد بن يزيد بن مَزْيد:

نِعم لِواءُ الخميسِ أُبتَ بهِ ... يومَ خميسٍ عالِى الضُّحَى أفِدهْ
خِلتُ عُقابا بيضاءَ فى حُجُرا ... تِ الملك طارتْ منه وفى سُدَدِهْ
فشاغب الجوَّ وهو مسكنُهُ ... وقاتل الريحَ وهى من مَدَدِه
ومرَّ تهفو ذؤابتاه علَى ... أسمرِ متْنٍ يومَ الرغى جَسِدِه

د ــ منابع الصورة عند أبى تمام: والصورة عند أبى تمام مستخلصة من حياته، وحسه، وملاحظته. وتراها أحيانا بنت الملاحظة الدقيقة، والعلم بطبائع الأشياء، كقوله فى هجاء ابن المعذل لما هجاه:

أقدمتَ ويلكَ مِن هجوى على خطرٍ ... كالعَيرِ يُقدِم مِن خوفٍ على الأسدِ

ويقولون إن من طبيعة العَيرْ أن يقدم على الأسد حقا إذا هاجمه، من خوفه منه. ويقول فى وصف ممدوحه:

هو السيلُ إنْ واجهتَه انقدتَ طوعَهُ ... وتقتادهُ مِن جانبَيْهِ فيتبعِ

وكقوله عن نفسه:

مسلَّط حيث لا سلطانَ لِى ويدى ... مغلولةُ النفعِ والسلطانُ سلطانِى
كالنارِ باردةً فى عُودِها ولها ... إنْ فارقته اشتعالٌ ليس بالوانِى

وكقوله:

عندى مِن الأيامِ ما لو أنه ... أضحى بشارب مُرْقِدٍ ما غمَّضا

وكقوله فى تصوير الربيع :

غيثانِ فالأنواءُ غيث ظاهرٌ لك وجهُهُ والصحوُ غيث مُضْمَرُ

وما أجمل هذا البيت، وأصدقه فى الدلالة على ثقافة أبى تمام العميقة، وحسن فهمه لطبائع الأشياء!

هـ — جزئية الصورة : ولكن غلو أبى تمام فى طلب الاستعارة، والمجاز، والتشبيه، وهذه الوسائل المنمقة، من وسائل الأداء، قد أوقعه فى كثير من الاضطراب، فى كثير من الصور. فجعلها مكونة من أجزاء مختلفة، لا تناسق بينها ولا التئام. كما فى قوله فى عيّاش بن لهيعة الحضرمى فى مصر. وهى من أوائل شعره :

سرّى رِداءَ الهوى فى حِين جِدّتهِ واهًا له منه مَسْرُوًّا وملبوسا

لو تشهدينى أقاسى الدمعَ منهمرا والليلَ مرتجَ الأبوابِ مطموسا

أستنبتُ القلبَ مِن لَوْعاتهِ شجرا مِن الهمومِ فأجنتها الوساويسا

وهى أبيات ثلاثة متصلة المعنى، تدور حول هواه. فهو كما يقول قد طرح رداء الهوى الجديد، وهو حزين ملتاع، يقاسى الدموع فى الليل الأسود المظلم، مهموما تخلق همومه الوساوس، ويتمنى لو رأته حبيبته حتى ترحم هذه الدموع.

وهى معان متصلة، تصف حالة فى نفسه، ذات أصل واحد؛ قد اصطنع فى تصويرها صورا عديدة. ويكفى الوصل بين هذه الصور، ليتحقق ذلك الاضطراب الغريب فى تصوير هذه الحال.

ذلك أنه رجل يلبس ثوبا جديدا من الحب، يخلعه عنه؛ ولكنه لا يزال يتعذب. هذا الرجل ذو الثوب المخلوع، ذو قلب كأنه الأرض الخصبة، ترويها أمطار من اللوعات، فتنبت فيها أشجار من الهموم، ثم لا تزال بها هذه الأمطار تلح عليها حتى تنتج ثمارا من الوساوس.

ويكون مجموع الصورة رجل يلبس ثوبا وتنبت فى قلبه أشجار تنتج أثمارا وهو يبكى. فاذا أضفنا صورة أخرى معترضة، وجدناه يبكى فى سجن من الليل مغلق الأبواب، أسود.

ولا شك فى أن استخلاص الحكم على التشبيه والاستعارة وما شاكلها، على هذه السبيل قسوة، لا على أبى تمام وحده، ولكن على كل شاعر. إلا أن أبا تمام كان يغلو فى هذه الطريق. وكان بها يحيل المعنى المقصود إلى أجزاء يتضح كل منها، ولكن يعسر على العقل، فى التعثر بين هذه الأجزاء الواضحة، وفى الانتقال من أحدها الى الآخر، أن يتضح له المعنى العام.

فهذه التشبيهات التى تتعدد ولا تتناسب، تزيد الحس بالجزئيات، وتضعف الحس بالكل، ضعفا لا يخففه إلا إعمال الذهن، والجمع فى فراغ بال وتؤده بين أشتات الأجزاء. وفى ذلك ما فيه من إضاعة الوقت. وأغلب الحال أن يتغاضى القارئ، فى غير انتباه، عن إدراك الكل بعد إدراك الأجزاء، وبذلك تضيع فائدة، وينعدم قسط ضخم من الجمال.

* * *

ومن آثار الغلو فى طلب الاستعارة فى شعر أبى تمام، ذلك الزلل فيما يستكره أحيانا، وهذه عاقبة الكلفة. ففى كثير من استعاراته وتشبيهاته، صور لا تهش لها النفس، وتكاد تذهب مثلا فى شناعتها، كقوله فى ممدوحه:

ما زال يَهْذِى بالمكارمِ والعُلا حتى ظننا أنه محمومُ

وكقوله أيضا:

إناءُ مجدٍ مَلآنُ بُورِكَ فى صريحِهِ للعلا وفى زَبَدِه

وكقوله:

فَلويتَ بالمعروفِ أعناقَ الورى وحطَمْتَ بالإنجازِ ظهرَ الموعِدِ

يقول الآمدى[1] "حطم بالإنجاز ظهر الموعد. استعارة قبيحة جدا، والمعنى غاية فى الرداءة. فإن الإنسان يصحح الموعد بالإنجاز، وليس يحطم ظهره. وهو القائل:

إذا وعَدَ آنهلّتْ يداه فأهْدَتا لك النجح محمولا على كاهل الوعدِ

وكاهل الوعد إذا حمل بالنجح، فأحْرِ به أن يكون صحيحا ... لا أن يكون محطوما" ولست متحمسا كثيرا لعبارة الآمدى عن عدم موافقة الاستعارة للمعنى، على الوجه الذى ارتآه، فإن التخريج العقلى كفيل بقبول هذا الوجه، الذى لم يقبله الآمدى، ولكنى أتفق معه على قبح هذه الاستعارة.

ولو صح أن أبا تمام قد أراد فى استعمال كلمة الوشاح معناها الأصلى فى البيت:

مِن الهيف لو أنَّ الخلاخيل صُيِّرت لها وُشُحا جالت عليها الخلاخِلُ

لكانت استعارة من أقبح الاستعارات. يقول الجرجانى[2]: "أراد وصفها بدقة الخصر، فوصفها بغاية القصر والضئولة. لأن الوشاح يؤخذ من العاتق، ويوشح أحد طرفيه الصدر والبطن، والآخر الظهر، حتى ينتهيا إلى الكشح، ويلتقيا على الورك. وكيف حال من يجول الخلخال من عاتقها إلى

(١) الموازنة: ص ١١٩. (٢) الوساطة: ص ٧٣.

كشحها ؟ وهل تكون من البشر ، فضلا عن أن تنسب إلى الحسن " ؟ ويقول الآمدى " لقد جعلها جُعَلا " .

ولو صح ما أراه من أنه نقل لفظ الوشاح إلى معنى الحزام ، فان هذا يخفف شيئا من قبح الصورة ، ولكنه لا ينقذها منه تماما . إذ أن هذا الكشح الذى يبلغ من نحولته أن يدور حوله الخلخال كشح قبيح أيضا .

* * *

هذه هى الصورة فى شعر أبى تمام فيها لمحات من أجمل ما ترتاح إليه النفس ، وأخرى قبيحة . ولكنها كانت جميعا صورا لمعانٍ قد تكون واضحة الحدود فى نفسه ، وقد تكون أثرا من آثار اضطراب حاله أو عقله ، لما كان يشغله فى حياته المضطربة المعلقة فوق فوهة بركان . فلقد كان فن أبى تمام فى تفاصيله وأجزائه ، وفى مجموعه ، أثرا من آثارها ، وصورة من انفعالاته بها .

ولكنها ، الحسن منها والقبيح ، يجرى عند جذورها ذلك المعنى الهادئ ، المطمئن ، الذى يمس أصول فن أبى تمام ، والذى هو نتاج تكوينه النفسى ، وفطرته التى فطر عليها . وإن الإنسان ليرى وصفه للجيش .

وقد ظُلِّلَتْ عِقبانُ أَعلامِهِ ضُحًى ... بِعِقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهلِ
أقامت مع الراياتِ حتى كأنها ... مِن الجيشِ إلا أنها لم تقاتِلِ

ثم يرى قول أبى الطيّب فى هذا المعنى :

سحابٌ مِن العِقبانِ يزحفُ تحتها ... سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمه

فيدرك فرق ما بين النفسين . فالصورة عند المتنبى تقوم على الخيال ، قيامها عند أبى تمام على الخيال أيضا . ولكنه الخيال الذى يقوم عند أبى تمام على ناحية الجمال فى الحياة ، وعند أبى الطيب على ناحية القوّة والرهبة فيها .

هذه النفس تتدفع عراما ، زخّارا ، جارفا ، وتلك تنساب عذبة ، هادئة .

الصورة عند أبى تمام تتألق ضياء وألوانا ، فالضحى بنوره ، والرايات بألوانها ، والدماء وحمرتها ، والعِقبان وقد نهلت من الدماء ، بأجنحتها المنشورة ، وهدأتها فوق الرءوس لا تقاتل .

والصورة عند المتنبى سحاب من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . هذا إلى ما عسى أن يثير ذكر الصوارم ، تهتف بها الطير تستسقيها ، وذلك الانعكاس فى الأوضاع بأن يسق الأسفل الأعلى .

هـذا فرق ما بين النفسين الشاعرتين . نفس تعبـد الحياة فى هَوَج بالغ، وسرف فى الأنفعال بظواهرها . ونفس تحب الحياة فى أتزان، وتقبلها كما هى فى غير أضطرار العاجز إلى قبولها .

وفن يلجأ إلى الأبتسامة تعـلو الشفتين ، والبريق يلمح فى العينين ، ونظرة الألم الهـادئة التى تصيب من قلب الإنسان أكبر ما يعطيه إنسان من نفسه لغيره .

وفن آخر يلجأ إلى الصراخ والعويل، وخمش الوجه، وأستدرار دمع الغـير، بوسائل العنف . ولكن فى أعماقه أثرا من ألم حقيقى يمس النفس ، وفضلا من رجولة وقوة يدعو إلى لون من ألوان الإعجاب ، ربمـا كان يجرى فوق سطوح الحياة، قبل أن يجرى عند أعماقها .

وكلاهمـا نوعان من أنواع الأحياء القـوية ، كل فى ناحيتها . وصـورتان مكبرتان لجوانب فى النفس ، لا يستطيع أحدنا التغاضى عنها ، لأنهـا فيه . ولكن قد يقوى جانب فيتميز ويغلب ، ويضعف جانب ، فيهن ويتوارى، وليس ينعدم . فهو أيضا فى حاجة إلى إطفاء وارتواء .

ولقد عمدت من قبل فى أماكن متفرقة إلى مقارنة بين أبى تمـام وبين المتنبى ، وكنت أحب أن أفرد لذلك بابا ، لولا أنى وجدت ذلك عسرا إذا أردت إخراجه على وجه واف . إذ أن ذلك يستدعى وحده كتابا كاملا، فإن كل شىء فى شعر المتنبى يمكن أن يرد إلى أصله فى شعر أبى تمـام . بل إن بعض أساليب أبى تمـام فى الحياة ، كان يحاكيه فيها تلميـذه المتنبى . فلم يكن إزاء هذا إلا الاكتفاء بتلك اللمحات العاجلة ، فى الموازنة بين الشاعرين كلما سنحت فرصة .

٣ — اللفـــظ

لفظ أبى تمـام مثل فنه ، نتاج عدة عوامل ، منها الموهوب ومنها المكسوب . ولقد تكلمت على المكسوب فى بابين — أحدهما "ثقافته"، وثانيهما : "القدماء والمحدثون" . أما الموهوب فأظن أنى لم أمر بناحية من نواحى دراستى لأبى تمام إلا أشرت الى لون من ألوان نفس أبى تمام وكيانه .

(١) اللفظ عنده مظهر مركب نفسه : ولقـد تضافرت هذه العوامل على إنتاج فن مركب معقد ، حتى يستطيع أن يرضى كل مطالب هـذه الحياة المعقدة ، فى ذلك العصر الحافل . وكما كانت القصيدة فى مجموعها ، والصورة فى تفاصيلها ، أثرا من آثار هذا التكوين ، كان اللفظ كذلك . فهو عند أبى تمـام المـادة الأولى فى بناء قصيدته . وهو ممن يعتنون به ، وينصبون الوقت لتزيينه وأختياره ، والنظر فى محاسنه وبديعه ، والتأنق فيه . لأنه تصوير لحياة أنيقة مترفة . وهو عنده إلى

ذلك مظهر من مظاهر تركّبه النفسى . فهو أحيانا يذقيه رقيقا حلوا يسيل عذوبة ، لا جفاء فيه وإن كان غريبا ، وإن الإنسان ليسمع فى مثل هذه القصيدة من قصائده ما يشبه الموسيقى الرقيقة الرنين، الصافية الأنغام؛ رغم غرابة كثير من ألفاظها :

صَرْفُ النَّوَى ليس بِالمكيثِ (١) ... يَنبثُ ما ليس بالنَّبيثِ
هبت لأحبابنا رياح (٢) ... غيرُ سواهِ ولا دُثُوثِ
بدورُ ليلِ التمامِ حسنا (٣) ... عِينُ حُقُوفٍ ظِباءُ ميثِ
بين الأساوِرِ والخلاخيلِ والدمالِيجِ والرُّعوثِ (٤)
مِن كل رُعْبُوبةٍ تَرَدَّى (٥) ... بثوبِ فِتْنانها الأثيثِ

وإن الإنسان ليحس ما يشبه هذا فى قصيدته :

وثَنايَاكَ إنها إغريضُ (٦) ... ولآلٍ تؤمٌ وبرقٌ وميضُ
وأقاحٍ منوّرٌ فى بِطاحٍ (٧) ... هزه فى الصباح روضٌ أريضُ
وارتكاضُ الكرى بعينَيْكَ فى النو ... مِ فنونا وما لِعينى غموضُ

ومنها فى وصف الصحراء :

وبِساطٌ كأنما الآلُ فيهِ ... وعليهِ سَحْقُ المُلاءِ الرحيضُ (٨)
يصبح الداعِرِىُّ ذو الميعةِ المِرْ ... جَمُ فيه كأنه مأبوضُ (٩)
قد فضضنا مِن بيدِهِ خاتمَ الخو ... فِ وما كلُّ خاتمٍ مفضوضُ

(ب) تتجلى الصنعة فى اختيار اللفظ : هذا برغم قافيتها الضادية، وكلماتها الغريبة . فللألفاظ عند أبى تمام موسيقى خاصة يطلبها، ويحاول بها تحقيقها . وكما تختلط فى الموسيقى الأصوات

(١) الصرف : البلية، المكيث : الرزين، ينبث : ينبس . (٢) الدث : الضعيف من المطر أو الريح .
(٣) العين بالكسر : بقر الوحش . والحقف بالكسر : المعوج من الرمل جمعه حقوف . والميثاء : الأرض السهلة . وجمعه : ميث
(٤) الدملج : المعضد يشبه السوار يلبس فى العضد . والرعثه : القرط .
(٥) جارية رعبوبة : حسناء حلوة ناعمة . الفينان الطويل من الشعر . والأثيث : الغزير .
(٦) الإغريض : طلع أبيض طرى . تؤم : توأم . وميض : لامع . (٧) أقاح : جمع أقحوان ، وهو البابونج . أرض أريضة : زكية ، معجبه للعين، خليقة للخير . (٨) الآل : السراب والسحق : الثوب البالى . الملاء : جمع ملاءة : وهى الريطة . والرحيض : المغسول . (٩) الداعرى : وصف للجمل . وميعة الشباب : أوله . والمرجم، كمنبر : ما يرجم الأرض بحوافره من الدواب : وصف بالسرعة والقوة جميعا . والمأبوض : المشدود رسغ يده إلى عنقه فهو مقيد . واليد : الصحارى . والمفضوض : المفكوك . فض خاتم الكتاب : فكه .

الرقيقة بالأصوات الممتلئة ليتكون من المجموع موسيقى ترضى السمع والقلب معا ، بتناسبها وتغايرها ، فكذلك فنّ أبي تمام فى آختيار ألفاظه . فلقد كان يطلب أحيانا اللفظ الغريب و يفخر به فيقول :

فكأنما هى فى السماع جنادلٌ وكأنما هى فى القلوب كواكبُ

و يقول : وكان لِصَيْدِ الوحشِ منها حلاوةٌ على قلبه ليست لِصَيْدِ الأوابد

ولم يقف آختيار أبي تمام للفظ عند حلاوته فى السمع ، ولكنه كان يختاره أيضا ليجانس بينه و بين آخر ، أو ليطابق ، أو ليوزى . وليس بديع أبي تمام بالسهل البسيط ، أو القليل النادر ، و إنما هو منبث فى كل تضاعيف أبياته ، لا يكاد يخلو منه شعره إلا فى النزر اليسير جدا .

وكان التوفيق بين أداء المعانى ، و بين الإبداع فى اللفظ ، وآختراع الاستعارات وتعديدها ، مطلبا عسيرا ، ومركبا وعرا ؛ فكثيرا ما كان جمال اللفظ يذهب فى سبيل المعنى ، أو ينقص المعنى فى سبيل اللفظ . وكثيرا ما تستوعر الجملة واللفظ لآضطراب الصورة ، أو لمحاولة تنسيقها . فيأتيها الغريب ، ويأتيها الغموض .

(ج) التكرار : ويغلب التكرار فى لفظ أبي تمام غلبة واضحة ، تجعله ظاهرة من الظواهر التى تستدعى التعليل . وهو فى غالبه صورة من صور بديع أبي تمام ، ولقد كان القدماء يسمونه "رد الأعجاز على الصدور"[1] . وسآتى هنا بأمثلة قليلة ، إذ الديوان ممتلىء بها . يقول أبو تمام :

أدارَ البؤس حَسَّنكِ التَّصابى إلىّ فصرتِ جناتِ النعيم

لئن أصبحتِ مَيدان السوافى لقد أصبحتِ ميدانَ الهموم

و يقول : فالجوُّ جوِّى إذ أقمتُ بغبطة والأرض أرضى والسماء سمائى

و يقول : أظنُّ الدمع فى خدى سيبقى رُسُوما من بكائى فى الرسوم

وليل بت أكلؤه كأنى سَليمٌ أو سهرتُ على سَليم

و يقول : لم يُعْطِ نازلةَ الهوى حقَّ الهوى دَنِفٌ أطاف به الهوى فتجلدا

وهكذا يكثر التكرار فى شعره ، ولكنه ليس من قبيل الهذيان باللفظ الواحد ، إطالة للقول ؛ ولا سترا لخلة العجز ، حين يفتقر القائل إلى الفكرة .

(١) انظر كتاب البديع لعبد الله بن المعز طبع لندن ص ٤٧ ، ٤٨

(د) آختيار الصفات : وكثيرا ما يوفق أبو تمام فى آختيار الصفات ، حتى لتقع بعد موصوفها موقع الجديدة . كقوله : بَصُرتَ بالراحةِ الكُبرى . وكقوله : "زُعْزِعَت الأرضُ الوقور". وكقوله : حتى نقضتَ الرومَ منك بوقعة شنعاءَ ليس لنقضها إبرامُ

(هـ) اللفظ وسيلة الى السخرية : وقد يملى عليه اختيار اللفظ شيء السخرية ، أو الدعابة . كقوله :

فضربتُ الشتاء فى أخْدَعَيهِ ضربةً غادرتْهُ عُودا رَكُوبا

ولقد عابوا عليه أخدَعَيْه هذه ، حتى قال الآمدى عنه : إنه يستحق من أجلها أن يصفع فى أخدَعَيْه . وتغاضى عن تصوير هذا اللفظ لحالةٍ فى نفس أبى تمام . وكقوله أيضا :

فلو ذهبَتْ سِناتُ الدهرِ عنه وأُلْقِى عن مناكِبِه الدِّثارُ

لعدَّل قِسمةَ الأيامِ فينا ولكن دَهْرُنا هذا حِمار

أو دلالة اللفظ بجرسه على المعنى الذى يقصده . هذا إلى فائدته الأولى . كقوله فى وصف السحاب :

مُزَمْجِرُ المَنْكِبَيْنِ صَهْصَلِقٌ يُطْرِق أزْلُ الزمانِ مِن صَخَبِهْ

وديوان أبى تمام من أغزر الدواوين ، وأكثرها عدد لفظ . فإن سعة مادته اللغوية تدعو إلى الدهشة ، وإن الإنسان ليسائل نفسه عن مقدار ما كان هذا الشاعر يلم به من مفردات اللغة ، إذا كانت هذه المجموعة الضخمة هى مقدار ما كان يجرى منها على لسانه ، ويستعمله فى شعره .

(و) تركيب الجملة فى شعر أبى تمام : جملة أبى تمام نتاج نفسه المركبة ؛ فهى تشبهها تركيبا وتنوعا . ويبدو بين أجزائها آشتباك وتعلق ، وقد يزيد هذا التماسك حتى يصبح معاظلة كما فى قوله :

يا يومَ شرَّد يومَ لهوىَ لهوُهُ بِصبابتِي وأذلَّ عِز تجلُّدِى

والجملة عنده كأكثر ما تكون عند شاعر تعدد عناصر ، وتنوع مناحٍ ، حتى إن الباحث لا يكاد يعدم ، على كل وجهة من وجهات النحو ، مثلا فى شعره . ونقرأ فى آبن النديم أن طيفور قد عمل كتابا سماه : "سرقات النحويين من أبى تمام" وهو دليل على الاشتباك الواضح الذى كان النحاة يجدونه بين شعر أبى تمام والنحو . وقد تكون الجملة واضحة المعنى : رغم تعدد عناصرها كقوله :

إن جدَّ ردَّ الخطوبَ تَدْمى وإنْ يلعبْ بِخُدَّ العَطاءِ فى لَعِبِهْ

وقد تغمض شيئا كقوله :

إذا اليومُ أمسى وهو غضبانُ لم يكن طويلَ مبالاةٍ به حين يغضب

وقد يزداد غموضها، لتعدد أجزائها، واضطرار الشعر إياه إلى التفريق بينها . كقوله :

أهَيْسُ أَلْيس لجّاء إلى هِمم تغرّقُ الأُسْدَ فى آذيِّها اللّيسَا

أى أن همه تغرق فى موجاتها الأُسْدَ الليس . ففصل بين الصفة والموصوف فصلا يوقع الفهم فى شيء من الاضطراب . وهو كثير استعمال الإضافات كقوله :

له لِواء نَدًى ما هَزّ عامِلَه إلا أراكَ لِواءَ البخلِ منكوسا

مقابِلٌ فى ذُرَى الأفلاكِ مَنْصِبُهُ عِيصًا فعِيصًا وقُدْمُوسًا فقُدْموسا (١)

الواردين حِياض الموتِ متأقة ثُبًّا ثُبًّا وكراديسا كراديسا (٢)

والمانِعين حِياضَ المجدِ إن دُهِمَتْ منع الضراغِمِ آجاما وعِرّيسا (٣)

وهو لا يعبأ أن يتبع المضاف أو المضاف إليه بوصف ، فيزيد بذلك مقدار الكد الذهنى الذى يلزم قارئه، حتى يفهم قصده، كقوله :

الشرق غربٌ حينَ تفهم قصدَه ومخالِفُ اليمنِ القصيّ شآمُ

ومن أهم ما يلاحظ عليه الإسراف فى استعمال الصفات لما هو ركن فى الجملة، ولما هو فضلة. وهذه الصفات قد تكون مفردة ، وقد تكون جملة . وقد تنصبّ صفات متعددة على موصوف واحد كما فى قوله :

أنا فى ذمةِ الكريم سليما نَ السليم الهوى الشريفِ الهمامِ

نُطْتُ همّى منه بهمةِ قَرْمٍ ثقّلتْ وطأتى على الأيامِ

بحسامِ اللسانِ والرأيِ أمضى، حين يُنْضَى، مِن الجُرازِ الحسامِ (٤)

والصفات عنده لا تقف عند حد الجملة البسيطة، بل تتركب وتتعقد تعقد الأصل، فتسمع مثل قوله :

فى مَعْرَكٍ أما الحِمام فمفطِرٌ فى هَبْوَتَيْهِ والكُماةُ صيام

والضرب يُقعِدُ كل قَرْم كتيبةٍ شِرس الضريبةِ والحُتُوفُ قِيام

---

(١) هناك رواية أخرى : مقابل فى ذرى الأذواء . والأذواء هم ملوك اليمن القدماء . والعيص : الأصل . والقدموس : الملك المعظم .

(٢) متأقة : مفعمة ممتلئة . ثبا ثبا : أى جماعات .

(٣) الآجام : جمع أجمة . وهى الملتف من الشجر . والعريس : عرين الأسد .

(٤) الجراز كغراب : الحسام القاطع .

فأما وما بعدها صفة " لمعرك " ، ويقعد وما بعدها خبر " للضرب " . وقرم ، المفعول به ، الفضلة فى الجملة : مضاف إلى " كل " ، وهى بدورها مضافة إلى "كتيبة" ، وقرم ، موصوف "بشرس" المضافة إلى "الضريبة" ويلى أولئك جميعا الجملة الحالية . هذا الى ما فى البيت من بديع .

يأتى بعد ذلك الفصل بين أجزاء الجملة المتلازمة ، فصلا لا اختيار فيه ؛ ذلك أنه يكثر استعمال المتعلقات ، كما قدمت ، بجزء من الجملة واحد ، فيضطر إلى الفصل بين متعلق ومتعلَّقه ، بغيره ، كقوله :

ووالله لا تقضى العيونُ الذى له ... عليها ، ولو صارتْ مع الدمع أدْمُعاً

ومنها :

فتى كلما ارتاد الشجاعُ من الرَّدى ... مفرًّا غداة المأزِق ، ارتادَ مصْرَعا

إذا ساء يومٌ فى الكريهة منظرا ... تصلَّاه ، علمًا أن سيحسُن مَسْمَعا

وفى البيت الأخير إقدام أبى تمام على ما يقل استعماله فى الكلام عادة ، فهو يستعمل التمييز مرتين فى البيت الأخير ، ويستعمل المفعول لأجله : وهو "علما" ، ثم يلحقه بمفعول به مصدر منسبك من أن المخففة وما بعدها .

كل ذلك اشتجار بين المعانى فى ذهن أبى تمام ، يتقاضاه أن يبرزها جميعا فى عبارات تشود تحت ثقلها . وتفريقها فى أبيات لا يتلاءم مع تكوين أبى تمام النفسى ، لا يتفق مع خلقه ، وليس التفريق بينها ، بعد ذلك ، بالذى يعطى الصورة الصحيحة لذلك الاشتباك الفطرى فى نفسه ، وما كان اللسان ليصور عند شاعر نفسه على غير صورتها .

وقد تمت لأبى تمام السيطرة على هذه الجملة فى الطور الأخير من أطوار شعره ، فتهذبت ولانت ، ولكنها لم تفارق تركيبها ، الذى هو مظهر تركيب نفسه الثابت الوطيد .

٤ — حكمة أبى تمام

قد يكون غريبا شيئا عن الخصائص الفنية لشعر أبى تمام أن أتحدث فيها عن حكمته . ولكن الحكمة عند أبى تمام ليست من نوع الفلسفة التى يمكن أن يبعدها الإنسان عن فن أبى تمام .

(١) فإن هذه الحكمة — وأكاد أتحرى تجنب تسميتها الفلسفة — ليست إلا تصرفات عقلية فى المعانى التى يطرقها أبو تمام ، وتأتيه عن طريق تجاربه فى الحياة ، ونظراته إليها ، وتأملاته فى تصاريفها . يأخذها فيصوغها شعرا ، ويكسوها من فنه ما يجعلها قريبة التناول ، رضية المأخذ ، حسنة الوقع فى النفس .

(ب) وأوضح مظاهرها فى شعره، تلك الأبيات الجارية مجرى الأمثال . ويمكننى أن أنقل منها هنا شيئا، فالجمع بين أشتاتها يعطى عنها فكرة أوضح . فمن هذه قوله :

مالى أرى جلَباً فَعْمًا ولستُ أرَى ... سُوقا، ومالِى أرى سوقا ولاجلب !
أرضٌ بها عُشُبٌ جَزْفٌ وليس بها ... ماءٌ، وأخرى بها ماء ولا عُشُبُ !

وكقوله : والحظُّ يُعطاه غيرُ طالبِهِ ... ويحرِز الدرَّ غيرُ مجتلبِه

وكقوله : وأى فتًى ينقادِ للحلم أمرُه ... وأكثرُه رشدا إلى الغَىّ قائدُهْ

(يريد قلبه) .

وكقوله : وأقلُّ الأشياءِ محصولَ نَفْعٍ ... صحةُ القولِ والفَعالُ مريض

وكقوله : ذاك الذى قَرِحتْ بطونُ جُفونِهِ ... مَرَعًا وتربة أرضِه مِن إثمد

وكقوله : وإنى رأيتُ الوشم مِن خُلُقِ الفتى ... هو الوشمُ، لاما كان فى الشعر والجلد

وكقوله : فقسا ليزدجِروا ومن يكُ حازِما ... فليقس أحيانا على من يرحم

وكقوله : وقد تألفُ العينُ الدُّجى وهو قيدُها ... ويُرْتَجى شِفاء السم ، والسم قاتل

وكقوله : ليس الصديقُ بمن يعيرك ظاهرا ... متبسما عن باطنٍ متجهم

وقوله : وليست فرحةُ الأوْباتِ إلَّا ... لموقوفٍ على تَرَح الوداع

وقوله : فتى النكَباتِ من يأوى إذا ما ... أطفنَ به إلى خُلُقٍ وَسَاعِ

وقوله : ومِما كانتِ الحكماءُ قالت : ... لسانُ المرءِ من خدمِ الفؤادِ

وقوله : فلمْتَ الحزمَ إن حاولتَ يوما ... بأن تَستطيع غيرَ المستطاعِ

وقوله : وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ ... طُويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النارِ فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عَرْفِ العودِ

وقوله : ينال الفتى مِن عيشه وهو جاهِلٌ ... ويُكْدَى الفتى فى دهرِهِ وهو عالم
ولو كانتِ الأقسامُ تجرِى على الحجا ... هلكْنَ إذن مِن جهلهن البهائم

وقوله : * رُبَّ حزمٍ فى بغضةِ المومقِ *

وقوله : * وترك الشكرِ أثقل للرقابِ *

وقوله : * وكم مِن مُصيبٍ قصدَه غيرُ قاصدِ *

وقوله : * وسم الليالى فوق سم الاساودِ *

وقوله : لى حرمةٌ والتْ على سِجالكُم والماءُ زُرْقُ حِمامِه لِلأوَّلِ

وقوله : والطائرُ الطائرُ فى شأنِه يلوى بحظ الطائرِ الواقعِ

وقوله : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأوّل

وقد تطول هذه النظرات شيئا كقوله :

وهل مِن حكيم ضيَّع الصبرَ بعد ما رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازم

ولم يهدوا مِن عالمٍ غيرِ عاملٍ خِلافا ، ولا مِن عاملٍ غيرِ عالمِ

رأوا طرقاتِ العجزِ عُوجًا فظيعةً وأفظعُ عجزٍ عندهم عجزُ حازم

وكأبياته التى سبق ذكرها فى خالد بن يزيد بن مزيد التى أولها :

ممتلِىء الصدرِ والجوانح من رحمةِ مملوئهن من حسده

الأبيات ... ...

(ج) هذه هى حكمة أبى تمام . وهى شعر صحيح ، لقربه من القلب ، ولتعبيره عن مشاعر تعتلج بنفوس الناس جميعا ، وهم فى حاجة إلى الإبانة عنها فى مثل هذه الأبيات القصار ، لتكون أوجز وأليق للجريان بين الناس . وهى تتلاءم مع الروح العام لشعر أبى تمام ، الذى لا يخلو من فكرة فى أى ناحية من نواحيه .

٥ — نظرة أبى تمام إلى فنه

(ا) تلك هى الخصائص الفنية لشعر أبى تمام التى استطعت أن أقع عليها . ولقد وجدته يعرفها فى نفسه جميعا ، فيشير اليها فى شعره ، لا يكاد يغفل عن إحداها ، إشارة المفكر ، شأنه فى كل شعره ، حتى إن ما قاله فيها جدير بأن يكون نظرات ناقد فنان ، لا يليق القول جزافا . فيقول فى وصف فكرته ، الجارية أبدا فى شعره :

نَشْرٌ يسير به شِعرٌ يهذبه فكرٌ يجولُ مَجال الروح فى البدنِ

ويقول فى وصف بديع شعره، ومحسناته، واستعاراته، ووقع القصيدة فى القلب كما يقع النور :

إذا ما شِعرُ قومٍ كان ليلا تبلَّجنا كما انشقَّ النهارُ
وإنْ كانت قصائدُهُمْ جُدُوبًا تلونّا كما ازدوج البَهارُ

ويقول فى وصف سيرورة شعره، وجدة معانيه :

تلك القوافي قد أتينَكَ نُزَّعا تتجشَّمُ التهجيرَ والتغليسا
مِن كل شاردةٍ تُغادِر بعدَها حظَّ الرجالِ مِن القريضِ خسيسا
تلهو بعاجِلِ حُسنِها وتَعُدُّها عَلَقًا لأعجاز الزمانِ نفيسا
وجديدةِ المعنى إذا مَعْنَى التى تشقَى بها الأسماعُ كان أَبِيسا

ويقول فى وصف لفظه وبديعه :

مفصَّلةٌ باللؤلؤ المتَفَق لها مِن الشِّعرِ، إلا أنه اللؤلؤُ الرطْبُ

ويقول فى وصف الغريب من ألفاظه، والوحشىّ، والبيت يبين أنه كان يقصده :

كانتْ لِصَيْدِ الوحشِ منها حلاوةٌ على قلْبِهِ ليستْ لِصيدِ الأوابِدِ

ويقول موضحا ما كان يتبعه أحيانا فى المدح من كذب أو صدق :

ومتى مدحتُ سواكَ كنتُ متى يضِقْ عنى له صدقُ المقالةِ أكذبِ

ويقول فى جِدّة قصائده، وقبولها للحياة على الأيام، وكيف كان يسهر فى شعره الليل الطويل :

خذها ابنةَ الفكرِ المهذَّبِ فى الدجى والليلُ أسودُ حالكُ الجلبابِ
بِكْرًا تُورِّثُ فى الحياةِ وتَنْثَنِي فى السلمِ وهى كثيرةُ الأسلابِ
ويزيدها مرُّ الليالى جِدَّةً وتقادمُ الأيامِ حسنَ شَبابِ

ويقول ردا على دعوة من أدعى ذهاب القدماء بالشعر، وكان الجاحظ يمثل بهما :

لا زِلْتَ مِن شكرِى فى حُلَّةٍ لابِسُها ذو سَلَبٍ فاخرِ
يقول من تقرع أسماعَه : كم ترك الأوّلُ للآخرِ

ويقول فى ابتكاره لشعره :

منزَّهةٌ عنِ السرقِ المورَّى مكرَّمةٌ عن المعنى المُعَادِ

ويقول فى المزج فيها بين الغريب والأنيس :

إنسية وحشية كثرت بها حركاتُ أهلِ الارضِ وهى سُكُونُ

* * *

فكأنما هى فى السماع جنادلٌ وكأنما هى فى القلوب كواكبُ

ويقول فى تعدد فنونه فى القصيدة الواحدة :

الجد والهزل فى توشيع لُحْمتها والنُّبلُ والسُّخْف والأشجانُ والطرب

* * *

(ب) وهى نظرات ناقد أكثر منها نظرات شاعر . ولقد جاءت كتب نقد الشعر، بعد أبى تمام، فلم يمض أحدها دون أن يتحدث عن هذه النواحى فى نقد الشعر، حديثا قد يطول عن هذا وقد يقصر، ولكنه لا يخرج عن حدوده، ولا يبلغ جماله .

فاذا عقبت على هذا بأن أبا تمام كان أوائل من وضع قواعد النقد الأدبى العربى وأصوله ، لم أكن فيه مسرفا ولا غاليا .

ولقد تحدث بعد هذا أبو الطيب فى وصف شعره، فكان فى حديثه مقلدا لأبى تمام ، تقليده أياه فى كل ما كتبه . ولكن ليس له حلاوة قوله ، ولا تهذيب نظراته . وهو فى قوله فاخر أكثر منه ناقدا .

٦ — منزلة أبى تمام فى الأدب العربى

فرغت من الحديث عن فن أبى تمام . وهو فن مركب ، ليس بالبسيط ، ولا الساذج . جميل عذب ، قد يعتريه فى حالاته بعض الضعف الذى لا يسلم منه إنسان . ولسنا الآن ممن يتعصبون له ، أو يتعصبون عليه . فلا داعى لأن نجرده من أخطائه ، ولا داعى لأن ننسى فى سبيل هذه الأخطاء حسناته .

ولست أعرف فى العربية كلها شاعرا كأبى تمام : من حيث فيض شعره، وخصبه النفسى، وغزارته . ولا أعرف شاعرا خرج بالشعر العربى من دائرته الضيقة ، وأجراه مجرى القصص ، وتتبع فيه المعنى ، وراعى فيه اللفظ، ووفق فى أن يكسو فنه بهذا الحس الشعرى الرائع ، توفيق أبى تمام .

ولقد تحدّثت من قبل عن منزلة أبى تمام الشاعر من الأمة العربية ، وكيف يكون حلقة فى تاريخها النفسىّ ، وصورة من تاريخها الاجتماعى ، لا يمكن أن يؤديها غيره ، ولا يمكن أن يغنى عنها التاريخ النفسىّ لهذه الأمة . ويمكننى هنا أن أقول إن الشعر العربى كفنّ لم يكتمل فى يد شاعر اكتماله فى يد أبى تمام .

ففيه نجد الفكرة ، والجمال اللفظى ، وجمال الصورة ، وحلاوة النفس ، والشاعرية الفياضة ، التى لم تتهيأ لشاعر قبله ولا بعده .

ولقد بلغت الفكرة الشعرية فى يد أبى تمام أوجها . فلما بلغت المتنبى التبست عنده بالفلسفة ، ولم يكن حسه بالجمال يعدل حس أبى تمام به ، وكان أكثر شغلا بمظاهر القوّة فى الوجود .

فأخذ معنى الشعر عنده يحدر شيئا ، وتلك العاطفة الرقيقة العذبة — برغم قسوتها حينا — تستحيل عنده إلى عاطفة ، خشنة شيئا ، صاخبة ، هى لون من ألوان صراع نفس معذبة مع الحياة الجبارة فى ذلك العصر الغريب .

فأبو تمام عندى شاعر العربية الأكبر ، لا أعدل به شاعرا آخر من شعرائها .

* * *

كمل طبع كتاب " أبى تمام الطائى " بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٦٤ (٤ سبتمبر سنة ١٩٤٥) م
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية